الفصل الثالث

المعنى قضية لغوية واجتماعية

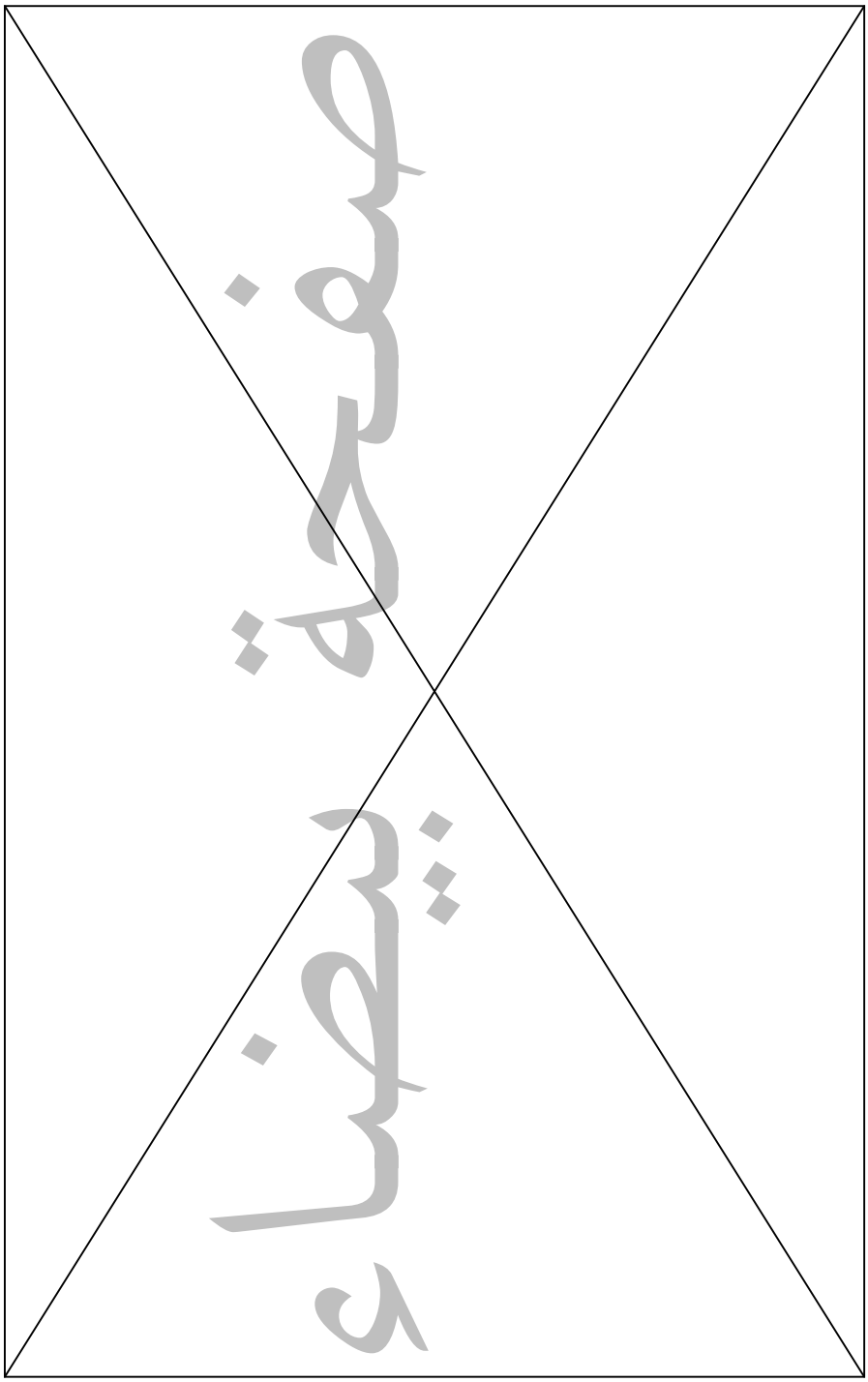
صفحة بيضاء

المعنى :

المعنى من المفاهيم السيكولوجية المهمة في علم النفس وهو من أهم مشكلات التعليم اللفظي التي دار حولها الجدل إلى حد كبير حيث اختلفت وجهات نظر المدارس النفسية إزاءها ، كالمدرسة السلوكية ومدرسة الجشطالت . إلى أن ظهرت دراسات رائدة في مجال المعنى . منها دراسات موزير Mosier التي استنتج منها أن معنى اللفظ يتكون من جزءين : جزء ثابت وهو ما يتضمنه المعنى العادي للفظ ، ويستخدمه الأفراد جميعًا في حياتهم العادية ، وجزء متغير وهو الذي يتضمنه التفسير الذاتي للفرد من حيث ارتباط هذا اللفظ بالإطار البيئي الخارجي ، ودراسات نوبل Noble التي استنتج منها أن معنى أي مثير لفظي ليس أكثر من مجرد عدد الارتباطات التي يمكن أن يثيرها هذا المثير .

- **السلوك اللغوي :**

السلوك اللغوي هو ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ؛ أي أن الإنسان ، يولد مزودا بقدرة على التعبير عن نفسه وعن مشاعره وآلامه وخواطره وأفكاره بأسلوب رمزي معين هو ما يسمي (باللغة).

- **اللغة عبارة عن نظام معين :**

إذن ، فاللغة عبارة عن نظام معين من رموز صوتية ذات دلالة ومعنى بالنسبة لأشياء وأحداث في العالم الخارجي ؛ وهي الأداة الإنسانية الضرورية للتفكير والاتصال الاجتماعي ، وتبادل الأفكار بين الأفراد بارتباط تلك الأفكار بعضها ببعض إما بوساطة الحديث أو السمع أو الكتابة .

- **رأي ثورنديك في اللغة :**

ويـرى ثورنـديك أن اللغـة أعظـم اخـتراع قـام بـه الإنسـان ، وأنهـا الوسـيلة الاجتماعيـة الأكثـر أهميـة بالنسـبة لـه مـن أي وسـيلة اجتماعيـة أخـرى مثـل المؤسسات والمدارس وغيرها ، وكذلك من أي وسيلة ماديـة . ووظيفـة اللغـة هي إشباع رغبات الفرد والتعبير عن أفكاره وإحساسـاته . فاللغـة تـبرز الفكـرة الكامنة لدى الفرد ، وتظهرها للآخرين وبذلك تتم عملية الاتصـال الاجتمـاعي بالنسبة للأفراد والجماعات .

- **اللغة تتضمن وظيفتين رئيسيتين :**

تتضـمن اللغـة وظيفـتين رئيسـيتين : إحـداهما عبـارة عـن وظيفـة تعامليـة Monipulative تكون بمثابـة العمليـة الـتي يتخـذها الأفـراد وسـيلة في تبـادل المنافع وقضـاء الحـوائج ، والأخـرى عبـارة عـن وظيفـة ترفيهيـة declarative تتمثل بوضوح في كثير من أحاديث النـاس الـتي لا يـراد بهـا قضـاء الحـوائـج وإنما تنطلق مـن الأفـواه رغبـة في الكـلام لـذات الكـلام والتعـبير عـن النـواحي الجمالية كما في الشعر والأدب .

- **اللغة تتعدد بنوعية لغة الفرد وثقافته :**

تتعدد نوعية لغة الفرد وثقافته تبعًـا للمجتمـع الـذي يتـأثر بـه ويـؤثر فيـه حيث تتم عملية الاتصال الفكري بينه وبين أفراد هذا المجتمع ، فاللغـة لهـا وظيفة ثقافية مكتسبة تختلف من مجتمع لآخر ، حيث إنها ميراث تـاريخي للجماعة ونتاج للاستعمال الاجتماعي المستمر .

- **رأي مالينوفسكي في المفردات اللغوية :**

ويرى مالينوفسـكي أن المفـردات اللغويـة في أي مجتمـع مـن المجتمعـات تعتبر المرآة الصادقة التي تعكس صورة واضحة لما عليـه أفـراد هـذا المجتمـع من ثقافة ونظم وعادات وتقاليـد واتجاهـات . فاللغـة تنبـع أساسًـا مـن الثقافـة ونظم الحياة والعادات عند كل جماعة .

• تطور مدلول اللفظ تبعًا للظروف الاجتماعية :

هكذا يتطور مدلول اللفظ في لغة ما تبعًا لتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور يحدث في حضارة الأمة ونظمها وتقاليدها ودرجة ثقافتها يتجه بمدلول اللفظ وجهة خاصة (أي يأخذ اللفظ معناً أخر).

• أثر الخبرة في المعنى :

يكون الفرد مفاهيمه ، ويشكل تفكيره من الثقافة المحيطة به ، إذ تعتبر المسؤولة الأولى عن نوع الخبرات التي يكتسبها . ويمكن القول إن هذه الخبرات الجزئية التي تبنى الثقافة نفسها فيما بعد ، وتعمل على تنمية وإدماج البيولوجية الفردية المنعزلة داخل الإطار الاجتماعي العام ، أو بعبارة أخرى تعمل على تجميع هذه الفرديات المنعزلة في كل واحد داخل إطار عام هو الإطار الاجتماعي . وتعتبر هذه الخبرة التي يكتسبها الفرد أثناء الاتصال الاجتماعي هي المسئولة الأولى عن تكوين المعاني والمفاهيم التي تميز انتماءه لهذه الجماعة دون غيرها من الجماعات وهكذا ، تعكس المعاني التي يكونها الفرد في بيئة وظروف معينة خبرته عن هذه البيئة بكل ما فيها من مثيرات مختلفة . ويتطلب الفرد ـ بالضرورة ـ قدرًا من الخبرة عن الأشياء والأحداث حتى يعرف ماذا تعني هذه الأشياء والأحداث . ويمكن القول بأن الفرد يكون خبرته عن العالم الخارجي المحيط به في صورة كلية غير مجزأة ، وأن التقسيمات التي توجد في هذه الخبرة مثل التقسيمات التي تتضمنها المعاني في اللغة ، ليست إلا تقسيمات اصطلاحية للضرورة فقط .

• الألفاظ لا تعني أكثر مما لدى الفرد من خبرات :

إذن فالألفاظ لا تعني أكثر مما تمثل في خبرة الفرد ويحدد معنى اللفظ في ضوء استعمالاته .

نخلص من ذلك أن الخبرة سواء أكانت خبرة فردية أم خبرة جماعية هي المسئولة عن معنى اللفظ أو العبارة ، والخبرة هنا بمعنى أنها التراث الاجتماعي أو الثقافي ، وذلك في صورتها الجماعية ، أما في صورتها الفردية فهي حصيلة الفرد من مهارات وعادات بالنسبة له ، ومن ثم يمكن أن نفرق بين مظهرين أساسيين للمعنى :

الأول هو المعنى الضمني أو النفسي : implicit meaning وهو ما يقابل المفهوم conotation في المنطق .

والثاني هو المعنى الإشاري : Denatative meaning وهو ما يقابل الماصدق denotation في المنطق (ما ينطبق عليه المعنى من أشياء).

يشير المفهوم إلى التصور أو الفكرة المجردة العامة أو الكلية ، فهو يعنى أن وجوده ذهني ، وهذه الفكرة مجردة من حيث أن ما هو مجرد يقابل ما هو عيني ، والعيني Concrete هو ما يعتمد على الإدراك الحسي أو الصورة الحسية ، فإن المجرد هو الصفة منظوراً إليها بغض النظر عن الموضوعات التي تحملها . والحد العيني هو هذه الموضوعات نفسها ، فمثلا اللفظ ، يعد تصوراً مجردًا ، والشكل المربع يعد تصوراً عينياً . فالتصور إذن هو الفكرة الكلية منظوراً إليها من ناحية الصفات التي تدل عليها .

- **الشيء ودلالته :**

يقابل الفرد في حياته اليومية عديداً من المثيرات اللفظية التي تؤثر فيه ويستجيب لها بطريقة أو بأخرى ، حيث ترتبط هذه المثيرات بنواحي انتقالية عاطفية معينة بالنسبة له ، نتيجة لمحددات البيئة وظروف الموقف التي وجدت فيه هذه المثيرات.

وهكذا تتكون المعاني النفسية عند الفرد إزاء هذه المثيرات ، وتتحدد نوعيتها ، من حيث قربه منها أو بعده عنها ، من حيث تقبله لها أو رفضها ،

ومن حيث قيمتها وأهميتها أو تفاهتها .... إلخ . وهذه المعاني النفسية الانفعالية التي يشعر بها الفرد إزاء هذه المثيرات ، ويمكن أن يعبر عنها بصورة لفظية مختلفة من حيث قوة أتجاهه نحوها أو ضعفها .

ومن هذا يتبين أن المضمون النفسي للمعنى عند الفرد يتمثل في استجابة تقويمية بالنسبة لمثير لفظي معين . هذه الاستجابة التقويمية تتضمن ـ أصلاً ـ صيغة انفعالية عاطفية إزاء هذا المثير أو ذاك . الأمر الذي جعل أوجدن Ogden يعرف المعنى النفسي بأنه استجابة انفعالية تقويمية بالنسبة لمثير ما ، فالشيء العادي مثل الكرسي ... إلخ عبارة عن مثيرات معينة يلمسها الفرد في بيئة ويستجيب لها استجابات مختلفة تبعًا لما تتضمنه من معان مختلفة : بالنسبة له ارتبطت بخبرات متباينة مر بها الفرد في مواقف كثيرة في حياته بالنسبة لهذه الأشياء . فالكتاب مثلاً قد يكون معناه النفسي عند الفرد العادل والقيم ... إلخ هذه المعاني التي يمكن أن يصفه بها ، وقد يكون المعنى النفسي ضد ذلك تبعًا لشيوع الخبرات التي مر بها الفرد إزاء الكتاب .

ويعرف أوجدن الشيء بأنه نمط مثير دال على الشيء كما هو بالفعل وينتج استجابات معينة عند الفرد ويرمز له بالرمز (R) .

وهكذا تصبح هذه الأشياء المادية ، عند الفرد بمثابة علامات signs أو مثيرات لفظية يستجيب لها الفرد استجابات مختلفة ، فاللفظ كرسي ، كتاب ، شجرة ، إلخ أصبح علامة معينة بالنسبة للفرد ، إذا ذكرت له أي إذا سمعها أو قرأها فإنه بمجرد سماعه لها أو بمجرد قراءتها فإنها تثير في نفسه معاني نفسية مختلفة كثيرة . تبعًا لنوع الخبرات التي مر بها في مواقف الحياة المختلفة تجاه هذه العلامات أو المثيرات : حيث يمكن أن تظهر هذه المعاني التي يشعر بها في صورة استجابات لفظية مختلفة يصف بها هذه العلامات .

وهكذا تستبدل هذه الأشياء المادية الملموسة بعلامات signs تشير إلى هـذه الأشياء وتشير إلى نفس المعاني النفسية عند الفرد إذا ذكـرت بمفردهـا ، بغـض النظر عن وجود هذه الأشياء .

- **استقبال الفرد المفاهيم والمثيرات اللفظية وتأثره بها :**

يستقبل الفرد هـذه المفـاهيم والمـثيرات اللفظيـة المختلفـة الـتي يقابلـها في حياته ويـؤثر فيهـا ويتـأثر بهـا حيـث إنهـا عمليـة متوسـطة داخليـة تـؤدي إلى استجابات المعنى عند الفرد وهى الاستجابات التي تكونت نتيجة للتفاعـل بينـه وبـين هـذه المـثيرات ، ويتحـدد نوعيـة هـذه المعـاني النفسـية تبعًـا لظـروف ومحددات الموقف والإطار البيئي الذي توجد فيه .

ويعرف الاستقبال Decoding (أي بمعنى المدخلات input) التي تثير لدى المستقبل عمليات داخلية بواسطة الجهاز الحسي ، وهنا تبـدأ الخـبرات السـابقة في إيجاد علاقات بين المدخلات وخبرات الفرد ، ثم تأتي بعـد ذلـك الرسـائل التى ينتجها الفرد ، في صورة مادية أو فكرية.

ويعرفـــه أوجـــدن بأنـــه ارتبـــاط العلامـــات بالوســـيطات الممثلـــة Representational Mediators أي الاستجابات المتوسطة ، وهـو عبـارة عـن التفسير الداخلي غير الظاهر لدى الفرد ، ثم ينتجه الفرد ما استقبله مـن مـثيرات في صورة أنماط سلوكية مختلفة قد تتمثل في استجابات لفظية معينة يمكـن أن يصف بها هذه المثيرات .

ويعـرف إنجليش English التنفيـذ : Encoding (أي بمعنـى المخرجـات Output) بأنه العلمية التي يحول الفرد ما يقصده إلى أنماط سلوكية مختلفة قد تتمثل في صورة استجابات لغوية ، باستخدام الإثارة أو العلامة .

والخلاصة أن الموضوع هو شيء خارجي تنبعث منه مثيرات معينة ، تكـون بمثابة علامات بالنسبة للفرد يستجيب لها استجابات مختلفة ، تبعًا لما تتضـمنه

من معان مختلفة بالنسبة للفرد ارتبطت بخبرات متباينة مر بها في مواقف كثيرة في حياته . وهذه الارتباطات هي دلالات الموضوع ، وهكذا تصبح الأشياء المادية عند الفرد بمثابة علامات (مثيرات لفظية) يستجيب لها استجابات مختلفة ، فاللفظ : كتاب أصبح علامة معينة بالنسبة له تثير فيه معاني نفسية مختلفة تبعًا لنوع الخبرات التي مر بها في حياته ، إزاء هذه العلامة . حيث يمكن أن تظهر هذه المعاني التي يشعر بها في صورة استجابات لفظية مختلفة يصف بها هذه العلامة .

- **السيمانتيك : Semantics**

السيمانتيك علم الدلالة ، وهو فرع من فروع علم اللغة ، وأحدث الدراسات اللغوية ظهوراً على وجه العموم .

وإذا كانت الدراسات اللغوية لم ينهض بها ـ عادة ـ إلا اللغويون فإن النظر في المعنى والموضوع شارك فيه علماء ومفكرون من ميادين مختلفة ، شارك فيه من قديم الفلاسفة والمناطقة خاصة . وشارك فيه علماء النفس وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا حديثًا . وأسهم فيه علماء السياسة والاقتصاد ، وذلك لأن موضوع المعنى من شأنه أن يشغل المتكلمين جميعًا على اختلاف طبقاتهم ، ومستوياتهم الفكرية ، لأن الحياة الاجتماعية تُلجئ كل متكلم إلى النظر في معنى هذه الكلمة أو تلك ، أو هذا التركيب أو ذاك . حيث إن المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام ، فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى ، بل هي جزء من معنى الكلام . وذلك كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات ، وما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات ، فعبارة مألوفة (كصباح الخير) ، قد يكون لها من المعاني ما يختلف كل منها عن الآخر إذا نظر إليها من حيث المواقف المختلفة التي تستخدم فيها ، ومن حيث حالة الفرد ـ بوجه عام ـ حين استخدامه لها ، ونوعية

العلاقة التي تربط الشخص بغيره حين إلقاء هذه العبارة عليه ، وهكذا . تتعدد دلالة هذه الكلمة وتتنوع على عكس الأمر بالنسبة للمعنى القاموسي الذي يدل على أن (صباح الخير) هي (تحية الصباح).

- **نشأة مصطلح السيمانتيك :**

نشأ المصطلح Semantics من الكلمة اليونانية Semonien ويقصد بها المعنى والدلالة ، وتوجد أصول لهذا المصطلح في دراسات الفلاسفة القدامى حيث أستخدمه أرسطو كصفة من الصفات اليونانية بمعنى دال Significant .

وأوضح أوجدن وريتشارد ما تتصف به مشكلة طبيعة المعنى من تعقيد . وقد قام تفسيرها للمعنى على أساس رياضي آلي . وأوجد من أنه يمكن الاستغناء عن بعض الأفعال في اللغة الإنجليزية وعن بعض الكلمات كالمترادفات ، والاقتصاد في الثروة اللفظية لتسهيل التفاهم بين الأفراد بطريق التركيز على عدد معين من الكلمات ذات المعاني الدقيقة المحدودة . ويرى أن عدداً محدوداً من الكلمات الواضحة المعنى خير بكثير من آلاف الكلمات ذات المدلولات الغامضة .

- **الرمز ذو معان ثلاثة :**

(أ) المعنى التركيبي Structural meaning ويتضمن علاقة المثيرات بالمثيرات الأخرى ، بمعنى البحث في التكوينات اللغوية نفسها من حيث تركيبها وتكوينها وأثر كل جزء منها في الآخر وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض وطريقة ربطها وفصلها .

(ب) المعنى السيمانتي ويقصد به المعنى الضمني أو النفسي ، ويتضمن علاقة المثيرات بدلالاتها عند الفرد حيث يشعر بمعاني كلماته ويتخير منها ما يروق له . فالسيمانتيك عبارة عن المعنى النفسي للفظ عند الفرد ، أي كل ما يشعر به الفرد انفعالياً وعاطفيًا ونفسياً ، نحو هذا اللفظ ، حيث تختلف دلالة اللفظ الواحد عند الأفراد المختلفين .

(ج) المعنى البراجماتي Pragmatical meaning ويقصد به المعنى الاجتماعي ، ويتضمن علاقة المثيرات بالسلوك الإنساني في المواقف المختلفة .

- **المرحلة الابتدائية القاعدة التي يتدرب فيها الطفل على المعاني والمدركات :**

تعتبر مرحلة الدراسة الابتدائية القاعدة التي يتدرب فيها الطفل على اكتساب وتكوين المدركات الكلية .

لذلك فإن الغاية من المدرسة الابتدائية مساعدة الطفل على أن ينمو نموًا كاملاً متكاملاً .

- **وظيفة المدرسة الابتدائية :**

١- اكساب التلاميذ القدرة على فهم العلاقات الاجتماعية الصالحة وممارستها .

٢- مساعدة التلميذ على اكتشاف الصالح من استعداداته وقدراته وتنميتها .

٣- تنمية عادة التفكير المنطقي المنظم .

٤- تعدد النشاط المنتج .

٥- تحصيل المعلومات وأدوات المعرفة .

٦- تكوين جسم سليم .

٧- تكوين الاتجاهات العقلية الصالحة .

- **أهمية السيطرة على المعنى في تعلم اللغة العربية :**

لما كان فهم الطفل للغة العربية ذا أثر فعال في تكوينه للمدركات العقلية كان من الضروري أن ننوه بأهمية دراسة اللغة العربية في المرحلة الابتدائية إذ هي ذات أهمية كبرى ؛ لأنها الأساس الذي يعتمد عليه في التواصل مع بيئته والتفاعل معها ، كما أنها الاساس الذي يقوم عليه كسب خبراته ومعارفه عن هذه البيئة لذلك كان لابد أن تسهدف دراستها مستوى معينًا يكفي أن يعبر فيه

الطفل عن نفسه تعبيراً مفهومًا عن طريق الحديث والكتابة وأن يفهم ما يقرأ وما يسمع فهمًا صحيحًا وأن يشترك في التفكير فيما يحيط به بقدر ما تسمح به سنه .

● الطفل بين لغة البيئة واللغة العربية الفصحى :

يأتي الطفل إلى المدرسة وقد تعلم لغته من بيئته التي يعيش فيها ، لذلك يجب أن تسير به العملية التعليمية خطوة خطوة من اللغة التي يتكلم بها إلى اللغة العربية الفصحى . والطفل لا تتكون لديه الذخيرة اللغوية دفعة واحدة ، ولكن يبدأ في أول الأمر يجمع مفردات مختلفة ، ويربط بين الألفاظ ، ويميز بين كلمة وأخرى وبين الحروف الهجائية المختلفة ، وبالتدريج تتسع دائرة هذه الذخيرة اللغوية لديه نتيجة احتكاكه بالأشياء والأشخاص في البيئة المحيطة به إلى أن يصبح قادراً على استخدام هذه اللغة في قضاء حاجاته وفي التعبير يجد رغباته ، ومطالبه وآماله ، وأمانيه فضلاً عن استخدامها كأداة للتفكير والتخيل .

وكلما تقدمت عملية التعلم يصبح الطفل أكثر قدرة على فهم الرموز والتحكم فيها وعلى الأخص الرموز اللغوية . لذلك كله فاللغة ذات أهمية كبرى في حياة التلاميذ الدراسية في المدرسة الابتدائية ، ويمكن تلخيص هذه الأهمية فيما يأتي :

١- أنها الأداة التي يستخدمها الطفل في التواصل بالمجتمع وفي التفاهم والتعامل مع غيره من الأفراد لتحقيق المنافع والحاجات ، عاجلة كانت أو آجلة ، فردية كانت أو جماعية .

٢- أنها الأداة في حالات تفكيره ونشاطه .

٣- أنها الأداة في التواصل بالقدر الملائم من التراث في المدرسة الابتدائية الذي تمثله المواد الدراسية .

• ارتباط التفكير باللغة :

التفكير لا يصبح ظاهرة اجتماعية إلا بفضل اللغة لأن اللغة هي الرابطة التي تصل بين الأفراد والجماعات ، وليست وظيفة اللغة الأساسية مجرد التعبير عن المعاني ، بل التأثير في نفس المستمع لحثه على القيام بنشاطِ حركي كان أو ذهنيًا .

• وصف عملية تعلم اللغة :

يبدأ الطفل في تعلم استجابات للإشارات والإيحاءات والحركات قبل تعلم الكلام ، وتقوم هذه الاستجابات الإشارية بالتعبير عما يريده ، وينبئ عما لا يريده أو يكرهه ، وفي الحقيقة يمكن للطفل تعلم دلالة ألفاظ اللغة . وتتصف هذه الاستجابات في بادئ الأمر بالعمومية ، ولكنها لا تلبث في التمايز تدريجيًا ، فمثلا ينفعل الطفل في موقف موسيقي لنغمة معينة وصفاتها الموسيقية قبل أن ينفعل بلفظ منفرد ، هذا مع اقتران الموقف بصوت المتكلم وحركاته وإشاراته ، إذ أن المجتمع هو الذي يوحي بالمعنى للطفل .

• كيفية تعلم الطفل اللغة :

يتعلم الطفل عن طريق محاكاة الآخرين وتقليدهم ولكن يحاول أيضًا تعلم استجابات جديدة ، لذلك فإنه يتعلم شيئًا فشيئًا كيف يقوم بعملية التعميم ، ويعتبر التكرار من أهم الوسائل التي تساعد الطفل على تعلم اللغة والتعبير اللفظي عما يريد وكلما زادت خبرات الطفل عن العالم الخارجي المحيط به اكتسب ذخيرة لغوية أكبر .

• نمو المدرك :

يندرج المدرك في نموه تبعًا لخطوات أساسية معينة ، إلى أن يكتمل هذا النمو ، ويتخذ شكله النهائي لدى الفرد ، حيث تصبح المفاهيم والمعاني الكلية التي تم تكوينها هي نفس المفاهيم والمعاني المتفق عليها لدى الأفراد الآخرين.

وهذا ما نلاحظه بوضوح لدى الأطفال الصغار ، فحينما يبدأ الطفل في التعامل مع العالم الخارجي ومع من حوله ، يبدأ في مرحلة تكوين المعاني والمدركات بالنسبة للأفراد والأشياء ، ويكون الطفل معاني الأشياء حينما يدرك الوظيفة التي تؤديها هذه الأشياء ، وفي نفس الوقت يتعلم اللفظ الذي يشير إليه ، ويعتبر العمل المساعد الذي يؤدي به إلى تمييز سائر الأشياء بعضها عن بعض.

فمثلا يتكون معنى (القبعة) لدى الطفل عندما يدرك أنها شيء يلبس على الرأس ، كما أن تعلمه اللفظ الذي يشير إليها ، يساعده على إدراك تلك الوظيفة التي تؤديها ، ويتوقف مقدار تكوين مدرك الطفل عن القبعة على مقدار تكرار هذا اللفظ أمامه كلما وجد نوعاً جيداً من القبعات ، وكذلك على مقدار تصحيح أخطاء الطفل في حالة نطقه اللفظ في مواقف لا ينطبق عليها هذا المعنى ، ولا تشترك في الصفة العامة التي تشترك فيها سائر القبعات .

وأما إذا كنا بصدد تكوين مدرك مثل مدرك (الحرارة) لدى الطفل ، فإنه يبدأ في تكوين النمو كلما جلس هذا الطفل الصغير بجوار ضوء ، وليكن ضوء مصباح كهربي مثلاً ، فإنه سرعان ما يمد يده في الحال تجاه هذا الضوء محاولا لمس المصباح . وفي هذه اللحظة يسمع الطفل تحذيراً من شخص راشد مستعملا كلمة (ساخن) وهذا التحذير قد يجعل الطفل يسحب يده ، أو ربما قد يستمر ليصل إلى قصور الضوء حتى تلمس يده الوجه الساخن ، وحينئذ يسحبها بسرعة ، وفي موقف آخر حينما يمد الطفل يده إلى شمعة مضاءة ، فإنه يسمع في نفس الوقت التحذير نفسه الذي سمعه في الموقف السابق وهو كلمة ساخن . وفي موقف ثالث يسمع الطفل هذه الكلمة أيضًا وهي (ساخن) حينما كان ينظر بشغف إلى ضوء عود الثقاب .

وعلى ذلك فإنه بعد فترة ما ، يلاحظ أن الطفل إذا رأى بريقاً ما ينبعث من خاتم أمه ، فإنه سرعان ما يتجه نحوه ويقول : (ساخن) كما أنه عادة ما يبتعد عن اليد التي فيها الخاتم .

• مشكلة تكوين المدرك الكلي :

إن مشكلة تكوين المدرك الكلي مشكلة ذات طرفين ، يتضمن طرفها الأول تحليل الشيء المركب وإدراك خصائصه الحقيقية بما فيها من فروق دقيقة وتفاصيل مختلفة وعلاقات متمايزة ، بينما يتضمن طرفها الثاني تركيب هذا الشيء في كلي متكامل أكثر تعقيداً ، حيث تنتظم التفاصيل الدقيقة داخل وحدة شاملة ، وحيث تضاف حقائق أعم وأوسع ، وبذلك تخرج صورة متكاملة النمو ذات معنى تؤدي إلى خدمة غرض ما .

إلا أن هاتين العمليتين ـ التحليل والتركيب ـ عمليتان تكملان بعضهما بعضًا ، إذ تسيران جنبًا إلى جنب في تطوير المدركات والأفكار .

فمثلاً يبدأ الفرد في ملاحظة تفاصيل مظهر حيوان ما مثل (الكلب) ، وسلوكه ، وبالتدريج يزداد تحديده لشكل أذنيه وذيله ولونه ونباحه ، ومدلولات أنواع نباحه المختلفة ، كما يحدد كل مخاوفه من الكلب ، ونوبات غضبه ، وبالتدريج يصبح الإدراك بالنسبة للكلب ، والتفكير فيه أكثر تفصيلاً مع الوقت نفسه تظهر عملية تركيب أو إعادة تنظيم تتغير خلالها فكرة الفرد عن (الكلب) بتمييز حيوانات كانت من قبل تدخل تحت هذا الاسم ، كما تنمو الفكرة كذلك بانضمام أنواع أخرى من الكلاب غير تلك التي كانت تندرج في الأصل تحت اسم النوع .

ومن ثم يتغير المعنى بعمليات تكميلية من التحديد والتوسيع ، وتحدث هذه العمليات بمقدار ضرورتها أو أهميتها للفرد في تحقيق أغراضه .

• تفسير المدرك الكلي :

فسر Hull تكوين المدرك الكلي على أساس قيام الفرد باستجابة صحيحة تجاه بعض العناصر أو بعض الخواص التي تعتبر عامة بالنسبة لفئة من المثيرات تختلف فيما بينها في بعض النواحي .

وقد رأى Hull أن هذه الخواص العامة التي تقوم عليها المدركات هي العناصر المتماثلة حيث يشترك كل واحد من أفراد الفئة في صفة تعتبر عامة بالنسبة للفئة جميعها ، فمثلاً بعض الكتب ذات لون أحمر ، وبعضها ذات لون بني ، كما أن بعضها ذو حجم سميك وبعضها ذو حجم خفيف ، ولكنها جميعًا بصفة عامة ذات أغلفة وصفحات وحروف .

• أنواع مدركات الأطفال :

١- المدركات الحسابية :

تضمنت الدراسات التي قام بها العلماء المدركات الحسابية التي تشمل مدركات الأعداد والكم والمكان . ولدراسات العلماء أهمية خاصة في هذا المجال ، فقد بنيت قدرة الأطفال على تنمية المدركات الكمية بدون القدرة على عملية العد ذاتها .

كما بينت تلك الدراسات أن المدركات الكمية تظهر في مرحلة تسبق ظهور مدركات القياس ، كما بينت دراسات أخرى وجود بعض التشابهات في مفهوم الزمان والمكان لدى الأطفال الصغار ، كما أن مفهوم الأطفال بالنسبة للقوانين التي تتضمن المعاملات المادية ست مراحل خاصة أو نوعية .

وقد أجمعت هذه الدراسات الخاصة بمدركات الطفل الحسابية على أن هذه المدركات ترتبط ارتباط وثيقًا بإدراكه فيما يختص بالعدد والمكان والوزن والكم . لهذا فإن نمو مفاهيم الطفل بالنسبة لهذه الأمور يتوقف على إتاحة

وتهيئة الفرص أمامه ليعالج المواد المحسوسة معالجة يدوية تؤدي إلى تقويم مدركاته الحسابية وتدعيمها.

٢- مدركات الزمن :

يقابل الطفل في حياته اليومية مجموعة من المدركات مثل الصباح وبعد الظهر ، والمساء ، وهي ترتبط بنظام حياته اليومي كالإفطار والغداء والعشاء وما إلى ذلك ، كما أنه يقابل مفاهيم للفصول المختلفة ، وحينما ينمو ويصل إلى حوالي السنة الرابعة أو الخامسة ، من عمره يقابل كميات غير محدودة مثل السخونة ، والبرودة ، والطفل على ضوء الدراسات التجريبية لا يتضح مفهوم الزمن لديه من حيث الماضي والحاضر والمستقبل إلا في حوالي العاشرة .

٣- مدركات العلم :

إذا كانت مدركات العلم تتضمن المقاييس النوعية ، وهي الخاصة بمدركات الحساب والزمان والمكان ،إلا أنها تتضمن ما هو أعمق منها حيث تقوم على فهم العلاقات ، أي علاقات السبب والنتيجة .

٤- مدركات الذات :

تقوم مدركات الذات على أساس مفهوم الطفل عن ماهيته وماذا يكون .

وأظهرت نتائج الدراسات العديدة أن نضج مدرك الذات يتعلق بالصعوبات المدرسية التي يقابلها الطفل ، كما يتعلق بالنضج الجسمي ، وبأحكام الوالدين ، وبمعرفة البيئة ؛ وبعوامل شخصية أخرى .

٥- المدركات الاجتماعية :

ترتبط هذه المدركات بمدركات الذات وهي تتضمن علاقات غير شخصية مثل معرفة الأمور الاجتماعية والمدنية . وتبين الدراسات الخاصة بهذا الميدان أن الطفل يبدأ في تعلم إدراكاته الحسية الاجتماعية الأولى وكذلك المفاهيم

والمدركات الاجتماعية في محيط عائلته المباشر ، كما تنمو مدركات أخرى لديه ، حينما يبدأ اللعب مع أقرانه ، ويتعامل مع غيره ويكتسب لغة قومه ، ويصبح تأثير الجماعة ذا أهمية تظهر على الطفل حينما يبلغ سن العاشرة ، كما يبدأ التعصب في الظهور عند هذا المستوى من السن لفئة معينة من الأفراد.

٦- المدركات الأخلاقية والدينية :

تتعلق المدركات الأخلاقية والدينية في بعض الأحيان بالمدركات الاجتماعية ، إلا أنها قد تذهب إلى أبعد من ذلك وتتناول المدركات المتعلقة بأفكار الأطفال عن الله. وقد تبين أن الأطفال الصغار يميلون إلى الصور المحسوسة لله، بينما يدرك الأطفال الكبار الله على أنه روحاني .

والخلاصة أن الدراسات عمومًا بينت التغير الذي يشمل المدركات من مرحلة الطفولة المبكرة حتى الأعمار المتأخرة ، إذ تتغير تلك المدركات من المباشر إلى البعيد ، ومن المحسوس إلى المجرد ، ومن البسيط إلى المعقد ، ومن الذاتي إلى الاجتماعي ، ومن المنتشر والموزع إلى المركز ، ومن المهم إلى النوعي والخاص ومن المتعارض إلى المتفق .

* * *